**الفئة المستهدفة: س1 ماستير فلسفة عامة**

**المحاضرة الأولى: نظرية الحجاج في الفلسفة الإسلامية**

**مدخل**: لأن الحجاج في النص الديني له أصل ومحل. لأن الحجاج موصول بقدرات العقل وملكاته، ومن دونه لا يبلغ آيات البيان والاستبيان في حقول المعرفة على الأرجح. فليس ثمة ريب في إقرارنا بوجوبه شرعا ووضعا، وقد أنبأتنا القراءات التاريخية عن ورود خطابات الحجاج مؤججة بفيض براهين وبيانات عقلانية جدالية أو سجالية، تباينت في شدتها وفي ضعفها، ترجيحا وتمحيصا، ونظرا ببينات أدعى للتأييد أو الاعتراض. ثم إن في الإسلام تأصيل باعتبار وأمر وترغيب لاعتماله في الأنفس العاقلة ما أمكن لها أن تنهل وتعقل باعتماله لبيان الحاجة والضرورة إليه، خاصة عند الخاصة من النّظار من أهل الدين و المنطق والعلم والفلسفة. وقد اقترن الدافع إلى الحجاج بمسائل علم الكلام والبلاغة والفنون والمناظرة والجدل.

**01/ علاقة الحجاج بعلم الكلام:**

**أ ـ تعريف علم الكلام:** جاء في كلام أورده أبو نصر الفارابي في كتابه: خص به تعريف علم الكلام قائلا: " وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الانسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة، التي صرّح بها واضع الملّة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل. وهذه الصناعة تنقسم جزءين أيضا: جزء في الآراء، وجزء في الأفعال.] وهي غير الفقه[ : لأن الفقيه يأخذ الآراء والأفعال التي صرّح بها واضع الملّة مسلّمة، ويجعلها أصولا فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها. والمتكلم ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولا من غير أن يستنبط منها أشياء أخرى. فإذا اتفق أن يكون لإنسان ما قدرة على الأمرين جميعا فهو فقيه متكلم"([[1]](#footnote-1)).

**ب ـ الحجاج وعلم الكلام في الخطاب الإسلامي**: ظل الخطاب الحجاجي في تفرده الاعتقادي الإسلامي موصولا بالمسائل الخلافية بين المتكلمين من العلماء والفلاسفة والفرق والمذاهب، لعقود من الزمن ليستحال السجال إلى التعرض لمفارقات منطقية صريحة بين النصوص الدينية وبين النصوص العقلانية وقضايا أخرى أثارها العقل فلسفيا، " ومع ذلك فالظاهر أن الفرق الكلامية لم تأخذ بالتبلور إلا عندما تجاوز الإشكال لطائفة التأويلات اللفظية، والتحليلات اللغوية. فراح من ثمة أنصار الآراء الكلامية المتضاربة يشتبكون في مناقشات عقائدية دقيقة. ثم إن العوامل السياسية والمؤثرات اليهودية والمسيحية كانت على ما يبدو ـ بالإضافة إلى الفلسفة اليونانية ـ أعظم القوى الفاعلة في تصعيد هذا الاتجاه الفكري. تجمع أقدم المصادر على أن أول قضية تجريدية دارت حولها المناقشات الكلامية الأولى، كانت قضية التخيير والتسيير او (مسألة القدر). وكان من أوائل المتكلمين الذين خاضوا في هذا الموضوع 'معبد الجهني' (ت 699) وغيلان الدمشقي (ت قبل 743) وواصل بن عطاء (ت 748) ويونس الأسواري وعمرو بن عبيد (ت762) وهناك متكلمون آخرون منهم الإمام الشهير الحسن البصري (ت728)"([[2]](#footnote-2)).

ولا شك أن مراتب الحجاج في الشأن الفلسفي أجل وأوضح، خاصة عندما يتعلق الأمر بمسائل التأويل ومحاولات مقاربة الشرية بالحكمة، وكذا من جهة استثمار العقلانية الإسلامية في مسائل مقاربة قضايا الفكر الفلسفي اليوناني ببعض المسائل المتعلقة بالفكر الإسلامي. وفي باب المنطق كذلك رد ابن رشد الأقيسة المنطقية إلى ثلاثة مراتب رئيسية هي: البرهاني والجدلي والخطابي. ويعتبر القياس البرهاني من اختصاص الفلاسفة، والجدلي من اختصاص المتكلمين، والخطابي من اختصاص جمهور الناس الغالب [[3]](#footnote-3).

ويعرض ابن رشد لمآخذ يرد بها على المتكلمين خاصة ما تعلق بمسائل التأويل ، وقد أبان عن ضعف أدلتهم الحجاجية بشأن الكشف عن بواطن الأفكار والعبارات غير الجلية للعقل. وقد عرض ابن رشد لهذه المسائل في مؤلفه 'الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة' قائلا: " إذا تذكرنا أن علم الكلام كان في أصل منشئه بالمشرق كلاما في السياسة بمفاهيم دينية، وأنه ظل يشكل أحد الأغطية الأيديولوجية للدعاية وكسب الأنصار وتنظيم الانقلابات والثورات في الدول المجاورة والمنافسة أدركنا الدوافع التي جعلت فقهاء الأندلس والمغرب يقررون تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد"([[4]](#footnote-4)).

**ج ـ الحجاج وأصول الحوار في الخطاب العربي الإسلامي المعاصر**: أبدا ليس الحجاج حكرا على فلسفة الأعاجم، فقد أبان مفكرونا العرب معاصرا عن نبوغ فكر وجودة نظريات منطقية، نحت بالعقلانية العربية إلى التجديد والإبداع في بضع أطروحات من طروحات المشكلات الفلسفية، ولنا في ما عرض له طه عبد الرحمن نمادج تجلي مقاربات لطروحات حجاجية خطابية منطقية وجيهة، بلسان عربي غير أعجمي، تفرد من خلاله المفكر بأصالة طرح، وتميز رؤى لفلسفة الخطاب الحواري الحجاجي في فلسفتنا الإسلامية. وقد ميّز بين ثلاثة مستويات من الفعل الحواري. يقول طه عبد الرحمان: " ميّزنا بين ثلاث من السلوك الحواري: 'الحوار' و 'المحاورة' و 'التحاور' ما كانت لتتأتى لنا في لغات أخرى، ووضعنا عليها القيود الكافية لتجعل منها أداة إجرائية مفيدة في التصنيف والوصف... وثاني العلمين اللذين اعتمدناهما هو المنطق... لقد ارتدى المنطق منذ مطلع هذا القرن ألبسة ثلاثة:

ـ لباس تركيبي: تتحدد على مستواه صحة الاستدلال بإمكان اشتقاقه من مسلمات مخصوصة بطريق قواعد مخصوصة.

ـ لباس دلالي: تتحدد على مستواه صحة الاستدلال بإمكان صدقه في جميع التأويلات المسندة إليه داخل أبنية دلالية مخصوصة، أو بتعبير آخر بامتناع التعرض له بالنقض.

ـ لباس حواري: تتحدد على مستواه صحة الاستدلال بإمكان تحصيل مدعيها من المتحاورين طريقة مشروعة لإلزام خصمه"([[5]](#footnote-5)) .

ولعل ما يعنينا في باب الحجاج هو الحوار. ولا ريب أن الحوار ما إن سلك فيه المحاور مسالك المنطق، لزم نفسه مقتضيات وشروط لا ينفك عن ملازمتها في كل عرض خطابي أو نصي بوجه عام، ومن أبلغ صور النصوص الاستدلالية: النصية: ومعناها البنية والنظام التراكبي الجملي السليم موصولا بعلاقات منطقية رتيبة، مثنوية كانت أم متكثرة. ثم الاقترانية: وخلاله ينعقد للنص الخطابي النسقية و التراتبية الوظيفية لعناصر الخطاب النصية. ونصل هذا الإلزام الإشراطي للنص بحسن الآداء اللغوي تفقها وفصاحة وبيانا، مقترنا بجودة النطقية في مضامينها وتداخل وظائفها، وقيميتها النفعية العملية. وأن يتحقق من خلال ذلك التحاور السوسيولوجي البناء بين الأنا والآخرما يصطلح عليه بالبعد الاجتماعي الحواري من خلال التشاركية العرفانية والاعتقادية المعلومة بين المتحاورين، وما يكون من شأنه باعثا على تجاوز الخلافات والمجادلات العقيمة، التي تستحال منطقيا إلى جدالات بناءة، تؤسس لمقاربات الخلاف، لأجل توحيد هوية الحوار الخطابي الحجاجي [[6]](#footnote-6).

**خاتمة**: لا ريب أن للحجاج في الفلسفة الإسلامية خصوصيته وملامحه المميزة خلاف ما تمظهر به الحجاج في الفلسفات الغربية واخصها اليونانية. وقد نهل الخطاب الحجاجي الإسلامي من أصول الشريعة ومن ثقافة وبيئة المسلمين ما يسمه بسمة الشمولية والثراء المعرفي والبنيوي، وذاك مؤشر على نماء العقلانية الإسلامية وتفردها بالإبداع الفكر ي والنسقي بما يساهم في تطوير وبعث فلسفة الخطاب، وتعزيز البلاغة الإسلامية، وهي تحاكي الروح السيميائية والفكرانية لفلسفة وفقه وعلوم اللغة العربية.

1. ـ الفارابي: إحصاء العلوم، ملتزمة الطبع والنشر مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط3، 1968، ص ص 131ـ 132. [↑](#footnote-ref-1)
2. ـ ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا، دار الشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2000، ص ص 89ـ 90. [↑](#footnote-ref-2)
3. ـ المرجع نفسه، ص 431. [↑](#footnote-ref-3)
4. ـ ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 35. [↑](#footnote-ref-4)
5. ـ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 21000، ص ص 29ـ 30. [↑](#footnote-ref-5)
6. ـ المرجع نفسه، ص ص 36 ـ، 37. (بتصرف). [↑](#footnote-ref-6)